احياء المولد النبوى الكريم

بعض رسومه ومناظره فى مصر الاسلامية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت ليلة الثانى عشر من ربيع الأول — ليلة المولد النبوى الكريم — دائماً من المواسم والأعياد المشهودة فى جميع الأمم الاسلامية ؛ وما زال مولد النبى العربى من الذكريات الخالدة فى المجتمع الاسلامى ؛ ولكن الاحتفال بذلك الحادث العظيم فى تاريخ الانسانية كان يقترن فى العصور الخالية ، أيام عز الاسلام ومجده ، بضروب من الجلال والبهاء والبذخ ، ذهبت بها حوادث الزمن وتقلباته ، وما انتهت اليه الأمم الاسلامية من الاضمحلال والتأخر . وقد بدأ هذا الاحتفال القدس فى عصر الاسلام الأول بسيطاً متواضعاً ، كباقى المواسم والاحتفالات الدينية ، فلما بلغت الخلافة ما بلغت من العظمة والبهاء ، ظهرت فخامة الملك وروعته فى الأعياد والحفلات الرسمية ، وجرت الشعوب على سنة ملوكها وأمرائها فى هذه المواسم من الظهور والبذخ . وكان شأن مصر الاسلامية فى ذلك شأن باقى الولايات الاسلامية فى عصر الخلافة الأول من بساطة فى الرسوم والمظاهر ؛ فلما استحالت مصر من ولاية خلافية الى دولة مستقلة فى عهد بنى طولون وبنى الأخشيد وقامت فيها قصور ملوكية باذخة ، ظهر أثر هذا الانقلاب فى رسوم الدولة ومظاهرها العامة ، وغدت المواسم والاحتفالات الدينية حوادث عامة يحييها الشعب ، كما تحييها الحكومة فى كثير من الرونق والبهجة والحبور .

وقد بلغت هذه المظاهر والرسوم الفخمة ذروة البهاء والروعة فى عهد الدولة الفاطمية ، وكانت هذه الدولة القوية الشامخة تتخذ من المواسم والأعياد الدينية والقومية فرصاً للظهور فى أبدع مظاهر القوة والفر والترف ، وتغمر الشعب فى هذه الأيام المشهودة بوافر بذلها وعطائها ؛ فكان الشعب يستقبل هذه المواسم باهتمام وحماسة ويكثر فيها من الاحتشاد والانفاق والمرح ، تشجعه الدولة على ذلك وتحثه بقدوتها ومثلها . وكان للاحتفال بهذه المواسم رسوم وتقاليد معينة تختلف باختلاف أهميتها الدينية أو القومية . وقد بلغت فى ظل الدولة الفاطمية من الكثرة والانتظام مالم تبلغه فى أية دولة اسلامية أخرى . ذلك أن الخلافة الفاطمية شرعت لنفسها ، الى جانب الأعياد الدينية المأثورة ، أعياداً خاصة بها وبدعوتها ومذهبها الدينى ، فقررت أن تحتفل الى جانب المولد النبوى ، بموالد خمسة أخرى هى مولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء التى ينتسب الفاطميون اليها ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ابنى على ، ومولد الخليفة الفاطمى القائم فى الملك ؛ هذا الى مواسم وأعياد أخرى كيوم عاشوراء (عاشر المحرم) الذى قتل فيه الحسين ، وليلة أول رجب ونصفه وليلة أول شعبان ونصفه وهى ليالى الوقود الشهيرة ؛ ثم كانت هنالك أعياد قومية أخرى كيوم فتح الخليج ، ويوم الميلاد النصرانى ويوم النوروز ، ويوم الغطاس ؛ ذلك أن الخلافة الفاطمية لم تنس أن تشمل رعاياها النصارى برعايتها وتسامحها فى إحياء هذه الأعياد القومية القديمة بصفة رسمية ، وفى أن تسبغ عليها من البهجة والبهاء ما يسبغ على الأعياد الأخرى .

وكان المولد النبوى الكريم فى مقدمة الأعياد الاسلامية المقدسة ، تحتفل به الدولة طبق رسوم معينة ، ويحتفل به الشعب فى فيض من الضجيج والمرح . وقد وصف لنا مؤرخو الدولة الفاطمية المعاصرين ، كابن زولاق ، والمسبحى ، وابن الطوير ، وابن المأمون ، طرفاً من هذه المناظر والرسوم الشائقة ؛ وخلاصة هذه الرسوم ، هو أنه اذا حل المولد النبوى ، يطلق من الخزينة مبلغ كبير برسم الصدقات ، ويطلق من دار الفطرة أربعون صينية فطرة ومن الخزائن سكر ولوز وعسل وزيت برسم خدمة الزارات التى بها — حسب قولهم — بعض أعضاء آل البيت ، ويوزع من الحلوى بضع مائة ألف رطل ، وكذا من الخبز كمية كبيرة . وفى يوم المولد النبوى — الثانى عشر من ربيع الأول — يخرج الخليفة فى موكبه ليجلس فى المنظرة الخلافية المجاورة للمشهد الحسينى ؛ وهى أقرب المناظر الى القصر ؛ وتكون دار الفطرة قد أعدت ثلاثمائة صينية مجهزة بالحلوى اليابسة لتفرق فى كبار الموظفين والقضاة ، وفى مقدمتهم قاضى القضاة وداعى الدعاة ، وقراء الحضرة وخطباء المساجد الجامعة . وعند الظهر يركب قاضى

القضاة فى موكبه من عند القصر ، ويخلى ميدان القصر من الجماهير ، ويترك للجمهور السلوك من ناحية أو اثنين ، ويقوم والى القاهرة بالمحافظة على النظام مع رجاله ؛ ويصل موكب قاضى القضاة من ناحية ، ويصل موكب الحاجب الكبير من ناحية أخرى الى ساحة المنظرة الخلافية وقد فرشت بالرمل ؛ ويقف الجميع فى الساحة متشوفين لرؤية الخليفة . وبعد نحو ساعة يطل الخليفة من احدى الطاقات وعلى رأسه المنديل الخلافى ، ومن ورائه بعض الأستاذين المحنكين[1] ويطل أحد الأساتذة من طاقة أخرى ويقول : « أمير المؤمنين يرد عليكم السلام » ويسلم على الحضور ؛ ثم يبدأ قراء الحضرة[2] بالقراءة وقوفاً ، ووجوههم الى الجمهور ، وظهرهم الى المنظرة ؛ ثم يلقى خطباء المساجد الجامعة خطبهم ، فيبدأ خطيب الجامع الحاكمى ، ثم خطيب الجامع الأزهر ، ثم خطيب الجامع الاقمر ؛ وتدور الخطبة حول المولد النبوى وقدسيته وفضله ؛ فاذا انتهت الخطابة ، أخرج الأستاذ رأسه من الطاقة ويده فى كمه وورد على الجماعة السلام ، ثم تغلق الطاقتان . ويحتجب الخليفة والأستاذ ، وينتهى الاحتفال ، وينفض الناس[3]

هذا ، والى جانب الاحتفال الرسمى ، يحتفل الشعب فى كل مكان باقامة المآدب الخاصة ليلة المولد النبوى ، وفى مساء يوم المولد ، وتسطع القاهرة فى الليـــل بالأنوار الباهرة ، وتغص الساحات والدروب بالجماهير المحتشدة ، وتكثر النفقة والنزهة ، وتقام أنواع الملاهى والمطاعم العامة ، وتسير السفن فى النيل والخليج محملة بالمتنزهين ، ويكثر البر بالفقراء والمساكين .

وكان الاحتفال بالمولد النبوى فى دول السلاطين المختلفة دائماً من الأعياد الرسمية ، تحييه الحكومة والشعب ، ويشهده السلاطين أحياناً ؛ ولكنه لم يبلغ فى ظل هذه الدول ما كان يبلغه من الفخامة والبهاء فى ظل الدولة الفاطمية .

وفى عصر الحكم التركى ، ذوى بهاء المواسم والأعياد الدينية كما ذوى كل شىء فى الحياة العامة المصرية ، وغلبت عليها التقاليد السخيفة ، ولم يبق لها شىء من تلك الروعة التى كانت تهز قلوب المسلمين ، وتبعث اليها الجلال والخشوع .

***

ويصف لنا الجبرتى طرفاً مما كانت عليه رسوم الاحتفال بالمولد النبوى فى أواخر الحكم التركى وأيام الحملة الفرنسية ، فيقول مثلاً فى وصف احتفال سنة ١٢١٤ هـ ما يأتى :

« وفى يوم الثلاثاء حادى عشره (أى حادى عشر ربيع الأول) عمل المولد النبوى بالأزبكية ودعا الشيخ خليل البكرى سارى عسكر الكبير مع جماعة من أعيانهم وتعشوا عنده وضربوا بركة الأزبكية مدافع وعملوا حراقة وسواريخ ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلاً وإسراج قناديل واصطناع مهرجان » .

ويقول فى وصف احتفال سنة ١٢١٦ هـ ما يأتى :

« وفيه (أى ربيع الأول) نودى بتزيين الأسواق من الغد تعظيما ليوم المولد النبوى الشريف فلما أصبح الأربعاء كررت المناداة والأمر بالكنس والرش لفصل الاعتناء وبذل الناس جهودهم وزينوا حوانيتهم بالشقق الحرير والزردخان والتفاصيل الهندية مع تخوفهم من العسكر . وركب المشار اليه عصر ذلك اليوم وشق المدينة وشاهد الشوارع . وعند المساء أوقدوا المصابيح والشموع ومنارات المساجد وحصل الجميع بتكية الكلشنى على العادة ، وتردد الناس ليلاً للفرجة وعملوا مغانى ومزامير فى عدة جهات ، وقراءة القرآن ، وضجت الصغار فى الأسواق وعم ذلك سائر أخطاط المدينة القاهرة ، ومصر وبولاق . وكان من المعتاد القديم ألا يعتنى بذلك إلا بجهة الأزبكية حيث سكن الشيخ البكرى لأن عمل المولد من وظائفه وبولاق فقط »

وفى وصف احتفال سنة ١٢١٧ هـ ما يأتى :

« فيه (ربيع الأول) شرعوا فى عمل المولد النبوى وعملوا صوارى ووقدة قبالة بيت الباشا وبيت الدفتردار والشيخ البكرى ونصبوا خياماً فى وسط البركة ونودى فى يوم الخميس بتزيين البلد وفتح الأسواق والحوانيت والسهر بالليل ثلاث ليال ، أولها صبح يوم الجمعة وآخرها الأحد ليلة المولد الشريف فكان ذلك »[1]

(١) الأستاذون المحنكون جماعة من كبار موظفى القصر اختصوا بالدولة الفاطمية ، وعددهم ثمانية ، ومنهم متولى التاج الذى يقوم بوضعه على رأس الخليفة ، وصاحب المجلس الذى يتولى تنظيم المجالس الخلافية الرسمية ، وصاحب الرسالة ، وهو الوسيط بين الخليفة والوزراء والحجاب ، ومدير القصور ، وحامل الدواة ، الخ . . . (راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٥)

(٢) قراء الحضرة هم قراء القصر الخصوصيين ، وعددهم عشرة قراء

(٣) راجع فى تفاصيل هذه الرسوم — خطط المقريزى (مصر) ج ٢ ص ٣٩٢ — ٣٩٤ ؛ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠١ و ٥٠٢ .

(١) الجبرتى : (طبع مصر) ج ٣ ص ٨١ و ٢٠١ و ٢٣٥ .